ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

مجلة آفاق للعلوم
Issn: 2507-7228 – Eissn: 2602-5345
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/351

المجلد: 07 العدد: 03(2022) ص645-655

اللّغة وأثرها في تحديد دلالات اللّفظ القرآنيّ

Language and its effect in determining the connotations of the Qur'anic word

زرقان عزوز

جامعة محمد البشير الابراهيمي – برج بوعريريج (الجزائر)

a.zorgane@univ-bba.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
02 ديسمبر 2021

تاريخ القبول:
03 جانفي 2022

الكلمات المفتاحية:
✓ اللغة
✓ السياق
✓ الوضع

الملخص:

تحاول هذه الورقة البحثيّة الكشف عن قضية شغلت اهتمام الكثير من العلماء وأهل اللغة، إنها ظاهرة اتساع دلالة اللفظ في القرآن الكريم بالنّظر إليه داخل السّياق الذي وضع فيه، وربّما وقع الاختلاف بينهم فيما تعلق بالمرجعيّة اللغويّة الواجب اعتمادها، وتحديد الدّلالة المقصودة بدقّة، على أساس أنّ فهم الخطاب القرآنيّ من غير اللغة العربيّة هو أمر بالغ العسر، لأنها تعدُّ أمّ الأصول في فهم القرآن وتأويله، ذلك أنّ تحديد الغايات المختلفة للألفاظ القرآنيّة يقتضي الوقوف عند معالم اللغة، فهي متشعّبة الدّلالات في عبارات المبدعين، وذلك ما نجده في المعاجم اللغويّة، علما أنّ القوانين اللغويّة تخضع بالضّرورة للتراكيب القرآنيّة ، وللتأليف القرآنيّ المتناسق والمنسجم.

Abstract :

This research paper attempts to reveal an issue that has occupied the interest of many scholars and linguists. It is the phenomenon of the broadening of the meaning of the term in the Holy Qur'an by looking at it within the context in which it was placed, and perhaps the difference between them occurred with regard to the linguistic reference to be adopted, and to determine the intended meaning accurately, on the basis that Understanding the Qur'anic discourse without the Arabic language is a very difficult matter, because it is considered the mother of the assets in understanding and interpreting the Qur'an. Linguistic laws are necessarily subject to the Qur'anic structures, and to the consistent and harmonious composition of the Qur'an.

Article info

Received
02 December 2021
Accepted
03 January 2022

Keywords:
✓ *Language*
✓ *context*
✓ *Situation*

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

مقدمة:

للّغة العربيّة حظوة روحيّة عظيمة ، فهي بالغة التميّز والتّفرّد ، عُدّت مرآة الأمّة ولغة دينها ، بها نزل كلام الله سبحانه ، وبها تكلّم خير الخلق - عليه السّلام - فهي اللّغة التي وسعت كتاب الله لفظا ومعنى ، وبها قرئ القرآن ، وبقوانينها وضوابطها يُفهَم ويُؤَوّل ، من أجل ذلك كانت العناية بها في عصور الإسلام الأولى كأيّ شأن من شؤون الدّين القيّم، بل إنّ هذا الأخير كان الدّافع الأقوى للاهتمام والانشغال بها . ولعلّ تدوين قواعدها الأساسيّة ، وعلومها المتنوّعة كان حماية وصوْنا للقرآن الكريم من أن تمتدّ إليه يد اللّحن فتحدِث فيه ما ليس منه .

بل إنّنا نلحظ أنّ العناية بها لم تكن من طرف علماء العرب فحسب ، فقد أعطاها غير العرب من الجهد الكثير ، و من النفس الطّويل ، و من المداد الغزير ما لم تقْو على حفظه الأذهان ، ولاعلى حمله الأسفار، حتى اشتُهِروا بخدمتهم للّغة العربيّة ، لأنّ فهم أحكام القرآن الكريم ، وفقه معانيه ، وتبيّن مقاصده ودلالاته، ومعرفة تفسيره، والتبصّر بأخباره يقتضي منّا - كلّ ذلك - دراسة هذه اللّغة دراسة وافية محيطة ، وشاملة مُلِمَّة ، يقول الامام الزّمخشريّ : " **وذلك أنّهم لا يجدون علما من العلوم الاسلاميّة ، فقهها وكلامها وعِلْميْ تفسيرها وأخبارها ، إلاّ وافتقاره إلى العربيّة بيّن لا يُدْفَعُ ، ومكشوف لا يُتقنّعُ ،ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنيّا على علم الإعراب ..**" (ابن يعيش،2007، مج 1 ،ص: 8) ، فكلام الزّمخشريّ صحيح إلى حدّ بعيد ، وذلك " **لتوقُّف معرفة دلالات الأدلّة اللّفظيّة من الكتاب والسنّة ، وأقوال أهل الحلّ والعقد من الأمّة على معرفة موضوعاتها لغة ، من جهة الحقيقة والمجاز ، والعموم والخصوص ، والاطلاق والتقييد ، والحذف والإضمار ، والمنطوق والمفهوم ، والاقتضاء والاشارة ، والتّنبيه والإيماء ، وغير ذلك ، ممّا لا يُعرف في غير علم العربيّة** " (الآمدي، 2003، مج 1، ص: 8)

بل ويذهب أبو حيّان التوحيدي الأندلسيّ في معرض ثنائه على كتاب سيبويه " الكتاب " إلى أنّ عدم الاطّلاع على محتواه ومباشرة التّفسير دون الرّجوع إليه منقصة من المفسّر، لأنه يُعتَبر المستند ، حيث يقول : " **فجدير لمن تاقت نفسه إلى علم التّفسير ، وترقّت إلى التّحرير والتّحبير ، أن يعتكِف على كتاب سيبويْه ، فهو في هذا الفنّ المُعوّلُ عليه ، والمُسْتَنَدُ في حلّ المشكلات إليه** " (التوحيدي، 2008، مج1، ص: 101) . فالتّفسير كعلم يستند بالأساس على اللّغة ، وليس ثمّة ما يُعتمد كلغة العرب الأوائل ، فهم الأعلم بمعاني الكلم ، لذلك كان الصّحابة رضوان الله عليهم يرجعون دائما إلى الرّصيد اللّغويّ المبثوث في كلام العرب كلّما صادفتهم مُشْكلات لغويّة ، أو استشكل عليهم أمر في سياق لغويّ ما ، يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - " **إذا سألتموني عن غريب القرآن ، فالتمسوه في الشّعر ، فإنّ الشّعر ديوان العرب** " (السيوطي، 2006 ، مج3،ص: 847)

وورد عنه أيضا قوله **": التّفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعرفه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلاّ الله** " (الطبري، 2000، مج1،ص: 56)

لقد كانت اللّغة العربيّة وما تزال الأداة اللّغويّة الأكثر مساعدة على فهم معاني القرآن الكريم ، وإدراك أجلّ مراميه ، وأبلغ مقاصده وبصورة أخصّ عندما زاحم اللّسان الأعجميّ اللّسان العربيّ ، وبات النّاس أبعد ما يكونوا عن السّليقة اللّغويّة السّليمة ، وهنا زادت أهمّيتها ، وعلت قيمتها ، وارتفع شأنها ، وصار الناس أحوج ما يكونوا لقواعد تضبط كلامهم ، وتسدّد ألسنتهم، وتجعلهم يقفون على المرامي الحقّة للّسان العربيّ المبين ، ولعلّ هذا ما نجده مجسّدا في كلام ابن خلدون إذ يقول : " **فلمّا جاء الاسلام ، وفارقوا الحجاز لطلب الملْك الذي كان في أيدي الأمم والدّول ، وخالطوا العجم ، تغيّرت تلك الملكة بما ألقى إليها السّمع من المخالفات التي للمستعربين من العجم ، والسّمع أبو الملكات اللّسانيّة ، ففسدت بما ألقي إليها ممّا يغايرها لجنوحها إليه باعتبار السّمع ، وخشي أهل الحلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا بطول العهد ، فينغلق القرآن**

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

والحديث على الفهوم ، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطّردة شبه الكلّيّات والقواعد ، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه منها بالأشباه " (ابن خلدون،2001،مج1،ص: 754)

ولقد أجمع علماء الأمّة قاطبة على أنّ فهم القرآن الكريم من غير اللّغة العربيّة لا يتأتّى باليسِر الذي يتصوّره البعض، كما يصعُب تحديد مقاصدِه وغاياته وحتّى تأويلاته ، لأنّها لغة القرآن الكريم ، ومن غيرها لا يمكن لهذه المقاصد أن تَبِينَ للنّاس ، يقول الامام الشّاطبيّ في هذا المعنى " **البحث المقصود هنا ، أنّ القرآن نزل بلسان العرب على الجملة ، فطلبُ فهْمه إنّما يكون من هذا الطّريق خاصّة ، لأنّ الله سبحانه يقول " إنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا " ، وقال " لِسَانُ الذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ " إلى غير ذلك ممّا يدلّ على أنّه عربيّ، وبلسان العرب ... فمن أراد تفهُّمه فمن جهة لسان العرب يُفهَمُ، ولا سبيل إلى تطلّب فهمه من غير هذه الجهة "** (الشّاطبي،1997،مج2،ص: 101- 104) ، فاللّغة العربيّة وعلومها المختلفة ، كان الهدف الأساس من وضعها ، خدمة الألفاظ والتّراكيب القرآنيّة . يقول الدكتور : محمّد علي زكي الصبّاغ : **" والقوانين اللّغويّة تخضع بالضّرورة للتّراكيب القرآنيّة ، ولا تخضع هذه التّراكيب إلى تلك القوانين ، ويُعتبر القرآن الكريم الأصل في جميع العلوم الدّينيّة واللّغويّة ..."** (زكي صباغ، 2005،ص: 416)

ولتحقيق تلك المقاصد والغايات ، كان لأهل العلم من المفسّرين وأصحاب التّأويل عناية خاصّة بمسألة الألفاظ القرآنيّة ،في شكلها وتركيباتها و أوضاعها ، ثم مدلولاتها ومحاملها ومعانيها المتنوّعة،كما اهتمّوا بالعلوم اللّغويّة وجعلوها محْور تفسيراتهم ، يقول الرّاغب الأصفهاني : **" أوّل ما يُحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن ، العلوم اللّفظيّة ، ومن العلوم اللفظيّة تحقيق الألفاظ المفردة ، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كوْنه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرِك معانيه ، كتحصيل اللَّبِنِ في كونه من أوّل المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه ، وليس نافعا في علم القرآن فقط ، بل هو نافع في كلّ علم من علوم الشّرع ، فألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزبدته ، وواسطته وكرائمه ، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحِكَمهم ... وما عداها وعدا الألفاظ المتفرّعات عنها والمشتقّات منها هو بالاضافة إليها كالقشور والنّوى .." (الأصفهاني، 2009، مج1، ص: 4)**

فالرّاغب يقرّ بأنّه لا محيد عن التّعرّف على مفردات القرآن الكريم التي هي أصل الكلام ، والتي عليها اعتماد أهل العلم في جميع العلوم الشرعيّة وليس علم القرآن فحسب ، ذلك أنّ الفقيه أو الأصوليّ أو اللّغويّ**...**جميعهم حاجتهم إلى معرفة لغة القرآن ومفرداتها هي أجلّ ما يمكن التّعويل عليه في أساسيّات العلوم التي يشتغلون عليها.

إنّ أصل القضية هنا يتمحْوَر أساسا في تحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن ، إذْ هي أساس كلّ تفسير، أو تأويل، أو تحقيق غاية، أو مقصد حين تناوله في القرآن الكريم . ولذلك نجد العناية الفائقة من قبل المفسّرين بمفردات اللّغة ، حيث أنّهم ذهبوا إلى أنّ " **من أحاط بمعرفة مدلول الكلمة وأحكامها قبل التّركيب ، وعِلْمِ كيفيّة تركيبها في تلك اللّغة ، وارتقى إلى حسْن تركيبها وقبْحِه ، فلن يحتاج في فهم ما تركّب من تلك الألفاظ إلى مُفْهِمٍ ولا مُعَلّم ..."** (التوحيدي، 1993، مج1، ص: 104) ذلك أنّ الكلمة القرآنيّة هي مبدأ البلاغة وأساسها ، ولا يمكن الاعتداد بأيّ تفسير يهمل الكلمة المفردة ، لما لها من طاقة دلاليّة ، وإشعاع بيانيّ ، حيث أنّ ذلك لا يفهم إلّا من جهة ما لألفاظ القرآن الكريم من إيجاز المعاني الكثيرة وتركيزها في اللّفظ الواحد ، وهو ما يُعْرف بصفة جوامع الكلم في البيان القرآنيّ، فلا شكّ أنّ مبنى العبارات القرآنيّة على الكلمات الجامعة ، وعلى منظومات الكلمات الجامعة ، إضافة إلى أنّ الألفاظ القرآنيّة تنفتح على كلّ الأزمنة منذ زمن التّنزيل ، ولها قدرة استيعاب رهيبة على كلّ ما جدّ من المعاني بآفاق واسعة تتعدّى كونها مفردات لفظيّة إلى كونها مفاهيم كلّيّة أو مفاهيم كاملة ، وهي معان لم تغب عن عقول العلماء وأذهانهم ، فقد بيّنوا أنّ الكلمة القرآنيّة قد تنصرف إلى عشرين وجها من وجوه المعاني وأكثر أو أقلّ .

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

والعلم بهذا المعنى هو ضرب من الفقه يقصد به أنّ اللّفظ واحد ، يحتمل معاني عديدة يُحْمل عليها إذا لم تكن متضادّة ، وبالتالي فإنّ النّاظر فيها – أي في ألفاظ النصّ القرآنيّ – لا يفقهها كلّ الفقه حتّى يرى لها وجوها تؤيّدها المقاصد الشرعيّة ، وكذا السّياق الواردة فيه .

وفضلا عن ذلك ، فإنّ من شأن الكلمة القرآنيّة أنّها تتميّز بجملة من الخصائص البلاغيّة واللغويّة ، عادة تعالجها علوم الاعراب ، والفصاحة والمجاز ، ودلالات الصّيَغ والأبنية والاشتقاق ...وغير ذلك ، كما أنّها ذات خصائص حضاريّة وعقديّة لما لها من أثر في بناء فكر حضاريّ إنسانيّ عبر الزّمان والمكان ، وذات خصائص شرعيّة كونها أصل من أصول الدّين ، ومُعْتَمد من معتمدات الشّريعة في استخراج الاحكام .

وبناء على ما سبق يأتي سياق هذا المقال ، ليعالج الكلمة القرآنيّة في أبعادها ، وبيانها ، وأسرارها ، وصورها ، لإخراج المقصود والمبْتغى من حيّز التصوّر والتقعيد ، إلى التحقيق والتطبيق ، الذي به تبين الأشياء ، وتُفْتح مجالات البحث اللّغويّ الواسع ، سالكا طريقا للأذهان ، فهما ، وتطبيقا ، ودراية ، لتُعْتَمد في التفكير والتعبير والابلاغ والبناء ، وصولا إلى المعرفة الحقّة ، في زمن أضحت فيه المعارف عرضة للتغيّر والتبدّل ، شديدة التفلّت ممن يتوهّمون السّيطرة عليها بشكل كامل .

يجب علينا بداية التّذكير بأنّ الاهتمام بمفردات اللّغة ، وتسليط الأضواء عليها ، والإلمام الشّامل بمدلول اللّفظة وأحكامها قبل التّركيب لا يمكن أن تستقيم إلّا بحملها على قواعد بيان المعاني ـ معاني المفردات القرآنيّة ـ بما ورد في كلام العرب السّابقين الذي وصلنا شعرا أو نثرا، ومصادر هذا البيان ، أي الوقوف بدقّة على مرجعيّات هذا البيان ، وداخل دائرة ما يتيحه كلام العرب .

وقد ارتكز التّفسير اللّغويّ الذي اعتمد على مسالك وأصول بحسب ما يتيحه اللّسان العربيّ من إمكان شرح المفردات القرآنيّة،" **كاحتمال اللّفظ الواحد أكثر من معنى ، لأنّه ورد في اللّغة على تلك الصّورة ، فضلا عن أنّ سياق القرآن يسمح بذلك ، فإذا حصل أن احتملت اللّفظة معنى واحدا فريدا ، فللتّفسير اللّغويّ حينها ضوابط محدّدة ، أبرزها ثبوت ذلك المعنى في لغة العرب ، ومراعاة مناسبة الشّرح للسّياق ، وكذا معرفة ملابسات النّزول عند الحاجة إليها ، وتقديم المعنى الشّرعيّ على المعنى اللّغويّ إذا تعارضا " (ابن تيميّة، 1973،ص: 79- 81)**

ومدار الأمر السّابق لا يخرج عن اعتبار " **الكلمة وحدة لغويّة تتألّف من سلسلة من الأصوات المتّصلة ، لها بداية ولها نهاية ، ولها وظيفة تركيبيّة ، وتدلّ على معنى في ذاتها " (أبو الفرج، 1966، ص: 9)** ، والمعجم يدور حول الكلمة شرحا وإيضاحا وتفصيلا ، ليبرز المعنى المعجميّ ويجعله أكثر جلاء، ذلك انّ المعجم يكشف عن معاني الكلمات في مختلف الاستعمالات .

لقد اعتبر أهل اللغة الكلمة نواة المعجم ، ونواة اللّغة كلّها ، ووحدتها الأساسية ، كما أنّ اللّغة أداة إدراك ومعرفة وتفكير ، ووسيلة للبيان والتّعبير .

واللّغة جُمل دالّة ، مركّبة من ألفاظ ذات دلالة ، وهي غير محدودة المعاني في كلّ لسان ، كما أنّ الجمل المركّبة من تلك الألفاظ ليست محدودة المعاني والوجوه والأساليب ، بل هي حاملة لمعاني كثيرة ، ووجوه عديدة ، يختلف النّاس حول استعمالها ، " **فلم يمنعْهم اختلافهم على معاني اللّغة وجملها أن يستعملوها من أجل البيان ، الذي به ينْماز الانسان عن سائر الموجودات ، وهل الاختلاف المذكور عقبة في طريق البيان ، وقد أُوتِي الانسان القدرة على اجتيازها بطرق كثيرة ، وألفاظ جمّة منها الاصطلاح .. "(محمد شاكر،1972، ص: 515)**

وممّا سبق تتضح أهمّيّة الاعتناء باللّفظ القرآنيّ ، وفي ذات الوقت خطورة تأويله وتوظيفه ، ووضعه في جملة من الاستعمالات على مستوى سياقات متنوّعة ، وأساليب وصياغات متباينة .

ولذلك نجد أنّ بعض اللّغويّين لم يوفّقوا إلى الحدّ المطلوب في التّفسير اللّغويّ ، حيث أنّهم وقعوا في بعض الأخطاء ، ونلمس ذلك في ميولهم ببعض ألفاظ القرآن الكريم عن وجوهها التي لأجلها وُضِعت، ومقاصدها التي لأجلها رُسِمَت ، من ذلك مثلا : قول المولى سبحانه وتعالى " **إِذْ يُغْشيكم النُّعاسُ أَمنَةً مِنْهُ** ،

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وينزّل عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ، وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ " سورة الأنفال 14 .

فقد ذهب أبو عبيدة إلى أنّه مجاز معناه: **"إفراغ الصّبر عليهم ليثْبُتوا لِعدوّهم" (ابن المثنى، 2017، مج1، ص: 242)**

وقد صحّح الطبريّ ما ذهب إليه أبو عبيدة مبيّنا أنّ تثبيت الأقدام على الحقيقة لا على المجاز اللّغويّ ، حيث يقول : **"وذلك قول خلاف لقول جميع أهل التّأويل من الصّحابه رضوان الله عنهم والتّابعين ، وحسبُ قولٍ خطأ أن يكون خلافا لقول من ذكرنا، وقد بيناّ أقوالهم فيه، وأنّ معناه : ويثبت أقدام المؤمنين بتلبيد المطر الرّمل حتى لا تسوخ فيه أقدامهم وحوافر دوابّهم" (الطبري، 2000، مج13،ص: 428**

وقد كانت فطنة العلماء ونباهتُهم حاضرة ، حيث أنّهم حذّروا من هذه المزالق الخطيرة ، وما يمكن أن تؤدّي إليه ، يقول الامام الشّاطبيّ في إشاره جادّة للأمر: **" فليس بجائز أن يُضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، ويجب الاقتصار في الاستعانه في فهمه على كلّ ما يضاف علمُه إلى العرب خاصّة ، فبه يوصل إلى علم ما أودِع من الأحكام الشرعيّه، فمن طلبه بغير ما هو أداته ضلّ عن فهمه وتقوّل على الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم " (الشاطبي، 1997، مج2،ص: 56)**

ولا نرى لكلام الشّاطبيّ سوى تفسير واحد جليّ وواضح ، وهو أنّ المرجعيّهالأساسيّه في تحديد المقصود الذي هو المعنى لابد أن يمرّ على قناة كلام العرب وما جرت عليه ألسنتهم ، فالكلام حمّالٌ أوجه ، لذا يجب الوقوف على الدّلالة المقصودة، وإلا وقع الإنسان في الخطأ وتقوّل على الله ورسوله.

يقول الدكتور محمد الفرجي واصفا خطورة القضية: **" إنّ توجيه دلالة النّصوص من أدقّ المطالب ، وأشق المراغب ، يجِد ذلك المتأوّلونوالفاسرون ، وبخاصة إذا كان النصّ المُتأَوّل كلاما ناءت بإنشاء ضريبه قُدَرُ البشر، فتزداد الدّقّة ، وتشتدّ المشقّة ، لأنّ توجيه المنطوق بمفهوم دلالي مُعيّن تقْصيد لمن تكلّم أو رَقَم ، وإذا كان المتكلِّم ربُّ الخليقة، قَوِيَ الحذرُ ، واستُحْكِم الخطرُ، فَلْيكُن على بال من النّاظِر والمفسّر أنّ ما يقوله تقْصِيدٌ منه للمتكلّمين ، والقرآن كلام الله ، فهو يقول لسان بيانه، هذا مراد الله من هذا الكلام، فلا يصحّ له ذلك إلّا ببيان الشّواهد "(الفرجي، 2015، ص: 427)**

إنّ الألفاظ والعبارات المتواجدة في مختلف السّياقات القرآنيّة كائنات لا يُمكن أن تُكْتَب لها الحياة ، ولا يتحقّق بها النّفع والانتفاع إلاّ بحسن توجيه دلالتها، وفي ذلك حَمْلٌ لها على أحسن المحامل ، وكلّ ذلك موقوف على توفُّر مؤهِّلات وأدوات وجب على اللّغويّين والمفسّرين وأهل التّأويل امتلاكها، حتى لا تقع الجناية على الدّلالة ، لأنّ تحديد الدّلالة ليس بالأمر الهيّنِ كما قد يتصوّره البعض ، وإنّما يأخذ من المفسّر واللّغويّ الجُهد الجهيد، والنّفس الطويل حتى يقع على محمود الدّلالة الذي لا يزِلُّ به عن المقْصود من كلام ربّ العالمين ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومن قضيه احتمال اللّفظ الواحد لأكثر من معنى ، وبعد توضيح ما تشكِّلُه من خطورة اذا عَدِمَ المفسِّر الدّقّةَ ، وحسن التركيز، وحسن الوقوف على الدّلالات في مضآنِّها يمكننا التّعريج على نوع آخر من التّفسير اللّغويّ ، ونعني بذلك "علم الوجوه والنّظائر" وهذا نظير ما قام به مقاتل في كتابه **"الأشباه والنّظائر"** حيث كان يورد اللّفظ الواحد من القرآن الكريم ويستخرج ما فيه من وجوه المعنى ، ومن غير شكٍّ يُعتَبر هذا العمل من صميم المنهج اللّغويّ ، حيث يراعى فيه الأصلُ الجامعُ لمعنى اللّفظ في اللّغة العربيّة ، وعلاقة تلك الوجوه بذلك الأصل ، وقد تتعدّد تلك الوجوه بتعدُّد الدّلالات ، والنّظر في ذلك يُرْجَعُ فيه إلى استعمالات العرب **" إذ أنّ النّظر والتأمّل ليس من جهه أنّ الألفاظ والعبارات في إطلاقها دالّة على معان مطلقة ، ولكن من جهه أنّ تلك الألفاظ والعبارات مقيّدةٌ دالّةٌ على معان تابعة ، كالخبَرَ الذّي يستلزِم ويسْتتْبع معاني خادمة هي : الخبَرُ والمُخْبِرُ ، والمُخْبَرِ عنه والمُخْبَرُ به ، الذي هو المخاطَبُ أو السّامِع ، ونفس الاخبار، والأسلوب المُعَبَّرُ به من إيضاح وإخفاء وإيجاز وإطناب ..." (بودرع،2016، ص: 14)**

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وغير بعيد عن الاشباه والنّظائر كان للمفسّرين اللّغويّين عناية أخرى واهتمام لا يقلّ أهميّة عن القضيّة السّابقة ، ويتعلّق الأمر بعلوم الكلمات المفردة في القرآن الكريم ، وهي علم غريب القرآن ، و علم معاني القرآن ، وعلم المعاني والأدوات ، وما وقع في القرآن من الأسماء والكنى والألقاب ومُبهمات القرآن ، و الفروق اللغويّة في القرآن وما وقع في القرآن بغير لغة العرب ، يقول أبو حيّان التوحيديّ الأندلسيّ:" **علم اللّغة اسما وفعلا وحرفا، الحروف تكلّم عن معانيها النّحاة فيؤخذ ذلك من كتبهم ، وأمّا الأسماء والأفعال فيؤخذ ذلك من كتب اللّغة ..."**.(التوحيدي، 1993، مجـ1، ص: 105) ، وفي هذا المقام تطيب لنا الإشارة إلى أمر ذي بال ، يتعلّق بمسألة أنّ الأخذ من كتب اللّغة عن اللّغويّين والنّحاة لا يعني أبدا تقديم رأيهم على ما وَصَلَنَا من الصّحابة والتّابعين في المسائل ذات الطّابع اللّغوي ، ذلك أنّ علم الغريب والمُبْهَمِ قد بدأ على عهد النّبيّ - عليه الصّلاة والسّلام - وكان يحدث ذلك وقت نزول القرآن الكريم ، حيث كان الصّحابه يسألون النّبيّ عما أُشْكِلَ عليهم فَهْمُه من ألفاظه رغم قوة وتماسك لغتهم ، ثم استمرّت أقوال كبار الصّحابة في الإجابة عن الغريب مستعينين بالشّعر وكلام العرب ولغتهم المتينة والتي نزل بها القرآن الكريم ، يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - **"الشّعر ديوان العرب ، فإذا خفِي عليهم الحرف من القرآن الذّي أنزله الله بلغة العرب ، رجعوا إلى ديوانها ، فالتمسوا معرفة ذلك منه " (السيوطي، 2006، مجـ3، ص: 847-848)** ، ذلك أنّه لا سبيل إلى تطلّب فهم القرآن من غير جهة لسان العرب، وبالتّالي فإنّ أهميّة هذا اللّسان من أهميّة هذا القرآن ، وفي هذا الشّأن أيضا يقول شيخ الاسلام ابن تيمية - عليه رحمة الله - **" إنّ الله لمّا أنزل كتابه باللّسان العربيّ ، وجعل رسوله مبلّغا عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربيّ ، وجعل السّابقين لهذا الدّين متكلّمين به ، لم يكن سبيل إلى ضبط الدّين ومعرفته إلاّ بضبط هذا اللّسان ، وصارت معرفته من الدّين ، وصار اعتياد التكلّم به أسهل على أهل الدّين في معرفة دين الله ، وأقرب إلى إقامة شعائر الدّين ، وأقرب إلى مشابهتهم للسّابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار في جميع أمورهم ..."(ابن تيميّة، 2006، مجـ1،ص: 402)** ،فاللّغة فيما نرى ونعتقد لا يمكن بأي حال من الأحوال إغفالها أو تجاوزها بالنّظر إلى هذه القيمة ، وهذه المكانة التي تحتلّها في بيان الأحكام الشرعيّة ، وإيضاح مقاصد الكثير من مصطلحاتها بدقة وتركيز ، فالعلم بشرعنا موقوف على معرفتها ، يقول الإمام الرّازي في هذا المعنى : **" لمّا كان المرجع في معرفة شرعنا إلى القرآن والأخبار ، وهما واردان بلغة العرب ونحوهم وتصريفهم ، كان العلم بشرعنا موقوفا على العلم بهذه الأمور ، وما لا يتم الواجب المطلق إلاّ به ، وكان مقدورا للمكلّف ،فهو واجب " 22 .** (الرّازي، 1992، مجـ1،ص: 275)

ومن أجل ذلك فقد استمرّت حركة التّأليف وتتابعت في غريب القرآن وفهمه ، وتوسّعت بصوره لافتة للنّظر حَسَب الحاجه إلى البيان ، وكلما زادت العجمة وابتعد النّاس عن الزّمن الأوّل تباينت المعرفة بقوة اللّفظ العربيّ كما نزل على هيئته الأولى، بيد أنّ جهود العلماء والمفسّرين ما تزال قائمة تجاه استقراء الألفاظ القرآنيّة وبيان ما تحتمله معانيها مع حُسْنِ تفسيرها وتوضيحها وإعطائها ما تحتمل ، وقد كان لهم في ذلك مذاهب شتى وآراء مختلفة ليس يعني بحثَنا الوقوفَ عندها الآن ، فيمكن لطالب العلم الوقوف على هذه المناهج في التّعامل مع الغريب في مظآنّها بعد الاجتهاد والكدّ .

وكما اعتنى علماء التّفسير اللّغويّين بالغريب والمُبْهَمِ، فإنّهم وبالطريقة ذاتها طال بهم المقام عند تفسير مفردات القرآن الكريم والاعتناء بنحوه وصرفه ، كتصريف كلمات القرآن الكريم وتصريف الأفعال والأسماء وكتب إعراب القرآن الكريم ، فلقد كان لهذا النّوع من الكتب كبير الشّأن في نضج واكتمال مقوّمات علم التّفسير وكثير من علوم القرآن الكريم، حيث كان إسهامهم كبيرا في وضع لَبِنات لعدد من علوم القرآن . كما ألّفوا وكتبوا في معاني القرآن، وتفسير مشكله، وتحديد مجازه، وإعراب آياته، فعلم معاني القرآن مثلا أخذ حصّة الأسد من تأليفات اللّغويّين والنّحويّين ، فلقد أكّد هؤلاء على **" أنّ نحّاتنا السابقين هم الذين أبلوا أحسن البلاء في توثيق نصّ القرآن الكريم بالاحتجاج**

AFAK for Sciences Journal مجلة آفاق للعلوم EISSN: 2602-5345 ISSN: 2507-7228
Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

للقراءات ، وبيان عللها، وجوهرها واختلاف قراءها ، وأنّهم هم الذّين هيّأوا لعلماء التّفسير الوسيلة الفعّالة لفهم معانيه، والاجتهاد في أحكامه وتفصيل آدابه، وكان ما قاموا به من أبحاث في كتبهم النّحويّه ، وكتب معاني القرآن والاحتجاج، وما غاصوا فيه من تحليل لآياته ، كلّ ذلك هو القبس الذي أضاء للعلماء الطّريقة في تفسير الكتاب العزيز."(القرني، 2016، ص: 18)

إنّ جهد هؤلاء ليس بالأمر الهيّن طبعا، فقد تمكّنوا من إبراز عدد معتبر من الأصول النحويّة والصّرفيّة ، حيث ضمّنوها كتبهم واستخدموها لاحقا في تأويل القرآن والتعرّف على مقاصده ومعانيه بعد تحديد معالمه وقضاياه المتنوّعة ، ومن جمله ما تمّ الاعتناء به قضية التّأليف في طرق دلالة الألفاظ على المعاني ،كالمحكم والمتشابه والنّاسخ والمنسوخ ومشكل القرآن والتّأويل اللّغويّ للقرآن الكريم، وهذه الدّلالات معتبرة مُحكَّمَة للوصول إلى بيان مختلف المعاني الشرعيّة والتي تطابق مختلف المقاصد.

وغير بعيد عن ذلك كان لهم اهتمام جليّ بالمعاني التركيبيّة، لاعتقادهم أنّ المعنى الإفراديّ قد لا يكون مُوفٍ للمعنى المراد، بينما المعنى التركيبيّ مفْهُوم دونَه. كما اهتمّوا في ذات السّياق بعنصر التّأليف في بلاغة القرآن الكريم بمختلف فروعه الثّلاثة، إضافة لعلم المناسبات وفواتح السّور وفواصل الآيات والإعجاز.

إنّ ما سبق ذكره يعطينا صوره واضحة بأنّ العناية بمفردات اللّغة والإحاطه بمدلول الكلمة و أحكامها قبْل التّركيب لا تنضبط إلاّ بقواعد بيان المعاني، معاني مفردات القرآن الكريم بما ورد في كلام العرب، وكذا مصادر هذا البيان، لأنّ لغتهم كانت على أرقى درجات الانسجام، وعربيّتُهم على أعلى مستويات القوّة والإحكام، وذلك ما يجعلنا نقول عن اللّغة بأنّها عصب التّفسير بل عموده الفقريّ ، فلا نعلم فحوى القرآن ودلالاته وموحياته وتأويلاته إلّا بنحوها وصرفها واشتقاقها ووجوه استعمالاتها .

ولذلك، وبناء على ما سبق التّنظير فيه يمكننا الوقوف عند أهمّ جانب والذي كان محلّ اهتمام أهل اللّغة في معالجة الكلمة القرآنية ، ويتعلّق الأمر بقضيّة اتّساع دلالات الكلمة القرآنية، مع إعطاء نماذج متنوّعة عن ذلك.

اتّساع دلالات الكلمة القرآنية

توحي لنا كلمة الاتّساع بسعة الأمر الذي هو عكس الضّيق ، بحيث يمكننا التّعبير بكلمة واحدة عن معنى لا يستطاع التّعبير عنه إلاّ ببضع كلمات أو جمل . ونقصد بتعدّد المعنى واتّساع الدّلالة ، دلالة الكلمة أو الجملة القرآنيّة على أكثر من معنى يتّفق مع السّياق الذي وردت فيه ، دون قرينة جازمة ترجّح أحد هذه المعاني، وتنفي ما عداها .كما يُقصد بالاتّساع في المعنى أو الدّلالة أن يكون هناك تعدّد فعليّ لمعنى الكلمة أو الجملة القرآنيّة ، وذلك كما في المشترك اللّفظيّ على مستوى الكلمة ، أو كما في بعض نواتج وجوه الإعراب على مستوى الجملة.

إنّ لكلّ سورة من سور القرآن الكريم موضوعات ذات علاقة بما يشبهها ويناظرها في غيرها من السّور، وهذا يدلّ على التّقاطع الحاصل بينها والمتعلّق بعضه ببعض، وهنا يأتي التّفسير اللّغويّ ليحلِّل هذه العلاقات ويبرهن على مختلف الحالات والوضعيّات ، ليرسم لها قواعد تضبطها وأسسا توضّحها وتنيرها، مبتدئا في ذلك من الجزئيّات اللّغويّة الصّغيرة الّتي تُوصِل المتلقّي إلى إدراك هذه العلاقات القائمة بين مختلف المعاني والدّلالات المتنقّلة بين مختلف السّور، ولا بدّ حينئذ من الوقوف على الكلمات التي تحمل الكثير من الدّلالات، ومن ثمّ البحث عن التّشابه المعجميّ الحاصل بين تلك الكلمات في الآية الواحدة، داخل السّورة الواحدة، ثم يأتي بعد ذلك الاستدلال عليها بكلمات أخرى من سور قرآنيّة أخرى .

علينا أن ندرك أنّ الكلمة في القرآن الكريم واسعة الدّلالة، متعدّدة المفاهيم، ولربّما اتّسعت لتشكّل طفرة توسّعيّة في الخطاب القرآنّي في حدّ ذاته، ويمكن تحقيق ذلك بالوقوف على الشّتات الحاصل في كتب اللّغة والبلاغة والنّحو والصّرف وعلوم القرآن جميعها لإثبات صفة التوسّعيّة في دلالة الكلمة الواحدة، وهنا يجد الباحث نفسه وجها لوجه مع باب عظيم اسمه التّأويل، الذي يكثر حوله الكلام شرحا وتفسيرا وتدقيقا، بناء على ما تفرضه العلاقات النحويّة والصّيغ الصرفيّة، وبلاغه البيان، وكل ما يتعلّق بالكلمة داخل السّياق وخارجه، داخل بنية التّأليف والتّركيب وسِلكه المنتظم، وهنا لا بدّ من الوقوف مليّا مع التّركيب الذي لا

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

يجب بأيّ حال من الأحوال أن يصيبه الخلل، أو يتسلّل إليه الغلط، لأنّ ذلك يعدُّ من سُبل إضاعة الدّلالات المتعدّدة وفقدانها، أو ربما وقع عليها التّفسير الخطأ، ولذلك يشترط التدقيق في مختلف العلاقات اللّغويّة، والتّركيز أكثر على القرآئن التي تكون عادة سببا مهمّا في التّأويل.

إنّ المتفحّص لهذا الكلام يدرك أنّ اتساع دلالات الكلمة الواحدة مرتبط أساسا بالرّجوع إلى المعجم، والوقوف عليه، لأنّه السّبيل الوحيد الذي يعطينا سبب انتقاء كلمة ما في سياق معيّن دون غيرها، يقول ابن قيّم الجوزيّة في هذا السّياق: **" السّياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المُحْتَمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوّع الدّلالة، ومن أعظم القرآئن الدّالة على مراد المتكلِّم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالطه في مناظرته..."(ابن قيم الجوزية، 2013، ص: 1314)**

إن كلام ابن القيّم يعطينا فكرة عن المشترك اللّفظي، هذا الأخير الذي يُتَوَسّلُ به إلى استيعاب المعاني والدّلالات غير المتناهية، وهذا بناء على اتّفاق الصّوره، واختلاف المعنى على ما أقرّه البلاغيّون، فقد أشار إلى تنوّع الدّلالة، وقبل ذلك تعيين المحْتَمل، وهوما يجعل المتلقّي وجها لوجه مع التّأويل والتّورية أو التّجنيس أو غير ذلك من الصّور التي تصادفه داخل السّياق الواحد، وتفرض عليه الوقوف على الدّلالة المقصودة بعينها دون غيرها، وهذا في اعتقادنا من أصعب الامور التّي صادفت المفسّرين وفتحت باب الاختلاف على مصراعيه بين البلاغيّين واللّغويّين والنّقّاد أيضا.

وللوقوف على المعنى الذي أوردناه سنحاول إيراد بعض النّماذج لتقريب الصّورة وتوضيح المراد على الوجه الذي أردناه معتمدين التّمثيل من آي وسور القرآن الكريم.

. يقول الله سبحانه وتعالى: **" ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ "** سورة الدخان، الآية : 49، فأنّى لنا معرفة المعنى المقصود الذي هو - إنّه الذّليل الحقير - دون الرّجوع الى سياق الآيات الكريمات ، حيث يقول سبحانه: **" إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ، كَالمُهْلِ تَغْلِي فِي البُطُونِ كَغَلْيِ الحَمِيمِ، خُذُوهُ فَاعْتُلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الجَحِيمِ، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ"** سورة الدخان، الآية : 43 إلى 49 ، إنّ قراءة سياق هذه الآيات الكريمات لا يحتمل وجوها عدّة، ولا تأويلات كثيرة للوقوف على أنّ المراد هو الذّلّة والاحتقار، استهزاءً به، وسخرية منه.

والقرآن الكريم يطفح بالكثير من الألفاظ والكلمات التّي تنوّع وتعدّد ورودها، بل وتكرّر تردُّدها في مواضع مختلفة منه ، ونجدها بعد الوقوف عليها أنّها عند كل سياق تتّخذ دلالة خاصّة بعينها تضاف إلى الدّلالة الأصليّة ، في انسجام جدّ متميّز، وتناسق لا نظير له ، فمثلا كلمة - **المستقرّ** - في قوله **تعالى" إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ "** سورة القيامة ، الآية : 12 ، فهي ذات دلالات عدّة، قد تُفْهم بمعنى الاستقرار، ومن ثمّ تكون مصدرا، وقد تفهم بمعنى مكان الاستقرار ومن ثمّ تكون اسم مكان، ويمكن أن تكون بمعنى زمان الاستقرار فتكون اسم زمان، فقد ورد عن الزّمخشريّ في شرحه لهذه الكلمة **" إلى ربّك خاصّة (يومئذ) مستقرّ العباد، أي استقرارهم: بمعنى أنّهم لا يقدرون أن يستقرّوا إلى غيره وينصبوا إليه، أو إلى حكمه ترجع أمور العباد لا يحكم فيها غيره، كقوله " لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ " أو إلى ربّك مستقرّهم: أي موضع قرارهم من جنّة أو نار"(الزمخشري، 2009، مج4،ص:191)**

ونجد المعنى ذاته تناوله أبو حيّان الأندلسيّ، حيث ذهب إلى أنّ معنى المستقرّ: الاستقرار أو موضع استقرار من جنّة أو نار. كما يمكن أن تدلّ على زمان الاستقرار، وهو وقت الفصل بين المخلوقات ودفعهم إلى مستقرّهم، فمدّة مكوثهم في ذلك اليوم مرتبطة بمشيئة الله سبحانه، **" وبالتّالي فإنّ لهذه الكلمة ثلاثة معان محتملة يمكن استنباطها من الآية الكريمة، ولو وُضِعت كلمة الاستقرار بدلها ما أدّت هذه المعاني" (السامرائي،2009،ص: 171).**

ومن نحو ذلك كلمة - حفدة - في قوله تعالى" **وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً "** سورة النحل ، الآية : 72 ، فهي تحتمل معان كثيرة وعديدة، فهي تعني: الخدم والأعوان، وقيل :

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

أبناء المرأة من غير زوجها، وقيل الأصهار، وقيل: ولد الولد، وعند النّظر في معنى الكلمة بالمعجمات نجدها لا تخرج عن الدّلالة على الخفّة في العمل، والسّرعة في المشي، يقول ابن فارس: **"الحاء والفاء والدّال أصل يدلّ على الخفّة في العمل والتّجمّع، فالحفدة : الأعوان لأنهم يجتمع فيهم التجمّع والتخفّف، واحدهم حافد.و السّرعة الى الطّاعة: حَفْدٌ، ولذلك يقال في دعاء القنوت، إليك نسعى ونَحْفِدُ، ويقال في باب السّرعه والخفّة: سيف مُحْتَفِدٌ : أي سريع القطع، والحَفَدَانُ : تدارك السّير"** (ابن فارس،2007،ص: 171)

وقد علّق الامام الطبريّ عند تفسيره للكلمة بقوله: **" ولم يكن الله سبحانه دلّ بظاهر تنزيله على لسان رسوله، ولا بحجّة عقل على أنّه عنى بذلك نوعا من الحفدة دون نوع منهم، وكان قد أنعم بكلّ ذلك علينا، و لم يكن لنا أن نوجّه ذلك الى خاصّ من الحفده دون عام، إلاّ ما أجمعت الأمّة عليه أنّه غير داخل فيهم، وإذا كان ذلك فلكلّ الأقوال التي ذكرنا عمّن ذكرنا وجه في الصّحّة، ومخرج في التّأويل"**(ابن قتيبة، 2008، ص: 246)

ومن نحو ذلك ما نقرأه في القرآن الكريم بعد تدبّره، والتّدقيق في سياقاته المختلفة، حيث نجد الجمع بين ألفاظ وصيغ متباينة في الدّلالة، يقول المولى سبحانه **"وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا "** سورة النساء، الآية : 60، فالقياس أن تكون " إضلالا " لأجل الفعل يضل، فمصدر أضلّ: الإضلال، في حين أنّ ضلال مصدر ـ ضلّ ـ قال الله سبحانه وتعالى **" فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا "** والمقصود ـ والله أعلم ـ **" أنّ الشّيطان يضلّهم فيضلون ضلالا بعيدا، فيكون الضّلال أثرا من آثار الإضلال، ونتيجه من نتائجه، بل هو استجابة له"** (بلعرج، 2007، ص: 76)

فهذا النّوع أيضا يندرج ضمن شبكة اتّساع دلالات الكلمة الواحدة، حيث يتشكّل الفرق بين اختلاف السّياق والموضع، فاختلاف السّياق يعطي فرقا في الدّلالة، فضلا عن الموضع الذّي من خلاله تتحدّد جملة من الدّلالات المختلفة، ومثل هذا نجده في قوله تعالى : **"كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ " الشّعراء**، الآية: 200، و قوله سبحانه" **وَ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ " الحجر، الآية : 31** ، فانظر إلى الفارق الحاصل في السّياق، فالأوّل دالٌّ على أنّ الفعل ـ نسلكه ـ أتى في سياق استمرار الرّسل وتعاقبهم، أمّا الفعل ـ **سلكناه** ـ فيحمل دلالة الانقضاء والانتهاء، وهو فعل واقع ضمن جملة من الأحداث الماضية، يقول سبحانه" **إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ، كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِين " الشّعراء، الآيات: 200/192**، والقارئ للسّور يجدها هكذا كلّها أحداث ماضية كما يبيّنه السّياق.

إنّ الحديث عن اتساع دلالات الكلمة الواحدة في السّياق والموضع على حدّ سواء يجعلنا نقف متأمّلين مليّا في هذه الطّاقات الدلاليّة المتعدّدة، والإشعاع البيانيّ المتنوّع، إنّه فعلا يشكّل صورة واضحة عن أهمّ ما يميّز التّفسير اللّغويّ للقرآن الكريم، وأنّ هذا العلم تحديدا هو مفتاح الوصول إلى حقيقة الدّلالة المقصودة في هذا الموضع دون غيره، فهو علم وفي ذات الوقت يُعدّ منهجا لما احتواه من الآليات والأدوات والقدرة الفريدة في تحليل السياق، ودراسة مواضع الألفاظ والكلم عموما، إنّها آليات منظِّمة ومساعدة على الإدراك اللّغويّ، وبالتّالي تحديد الفارق بين الدّلالات في مختلف السّياقات والمواضع، وكلّ هذا يعطينا نظرة واسعة عن تلك الجهود المبذولة من قبل اللّغويين، وأنّه من المهمّ التبحّر في هذا العلم لأنّه يهدي إلى كلّ العلوم، وفي هذا السّياق يحضرنا قول الامام الزّجّاجيّ حين سُئِل: **" فإن قيل فما الفائدة من تعلّم النّحو ؟ فالجواب أن يقال له: الفائدة فيه للوصول الى التّكلّم بكلام العرب على الحقيقة صوابا غير مبدّل ولا مغيّر، وتقويم كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ الذي هو أصل الدّين والدّنيا والمعتمد، ومعرفة أخبار النّبيّ ـ عليه السّلام ـ وإقامة معانيها على الحقيقة، لأنّه لا تُفهم معانيها على صحة إلّا بِتَوْفِيَتِهَا حقوقها من الإعراب. "**(الزجاجي، 1979، ص: 95)،

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

فالتّفسير الذّي يتعلّق ببيان مراد كلام الله لابدّ أن يتّخذ من علوم اللّغة المختلفة منهجا وسبيلا للوقوف على حقيقة معانيه . فاللّغة هي طريق تفسير المنقول أو التّأويل المعقول، وبغير هذه الآلية ربما زاغ العقل عن الاهتداء إلى المعاني المقصودة والدّلالات المرَادَة.

فلقد تفطّن أهل التّفسير إلى هذا المقصد العظيم، والمعنى الجليل الذّي لم تغيّبْه أذهانُهم ،واستحضرته قرائحُهم، حيث بيّنوا أنّ اللّفظ القرآنيّ الواحد قد ينصرف إلى الكثير من وجوه المعاني، فلا يحصل الفقه بمقاصد السّياق في الخطاب القرآني حتّى يتمّ إدراك كلّ تلك الوجوه على الشّكل الذي أقرّه اللّغويّون والبلاغيّون والمتأوّلون. من ذلك القبيل نجد كلمة "الهدى" والتّي جاءت بمعنى الثّبات في فاتحة الكتاب " **اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** " ، وبمعنى البيان في قوله تعالى : " **أُولآئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ**" ، وبمعنى الدّين في قوله تعالى : **قُلِ إِنَّ الهُدَى هُدَىاللهِ** " أي إنّ الهدى هدى الله، وبمعنى الدّعاء في قوله تعالى: " **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا** " ، وبمعنى الايمان في قوله تعالى : " **وَيَزِيدُ اللهُ الذِّينَ اهْتَدَوْا هُدًى** "، وبمعنى الرّسل والكتب في قوله تعالى : " **فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى** "، وبمعنى المعرفة في قوله تعالى" **وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** " ، وبمعنى النّبي في قوله : " **إِنَّ الذِّينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللَّاعِنُونَ** "، وبمعنى القرآن في قوله تعالى " **وَلَقَدْ جَآءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الهُدَى** "، وبمعنى التّوراة في قوله تعالى " **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ** " .

فجملة ما أحصاه المفسّرون لكلمة الهدى بلغت ما ينيف عن 27 وجهة، وغير بعيد عن كلمة الهدى نجد كذلك غيرها من الكلمات والتي بلغت الكثير من أوجه الدّلالة المتنوّعة في سياقات ومواضع مختلفة ، **ومن أمثلة ذلك:**

" **السّوء، الصّلاة، الرّحمة، الفتنة، الرّوح، القضاء الذّكر، الدّعاء،....**" وغيرها ممّا أدخله العلماء في باب الوجوه والنّظائر"(السيوطي، 2006، مج1، ص: 446)، فالملاحظ هو كثرة تصريف اللّفظ الواحد بين معانيه اللّغويّة الأصليّة ومعانيه المدركة تفسيريّا من مختلف السّياقات والوضعيّات داخل السّور الكريمة.

وبالتّالي يمكن القول بأنّ فهم آية أو نصّ بأكمله من القرآن الكريم يقتضي منّا النّظر بحذق، والتّدقيق بفطنة كبيرة في أوضاع الكلم إفرادا و تركيبا، بل حتى تقديما وتأخيرا، ذلك أنّ وضع اللّفظ داخل التركيب أو التّأليف يحمل الكثير من الدّلالات ، والكفيل بإيضاحها وتفسيرها هو الوقوف على العلاقات بين الكلم والقرآئن المختلفة التي نبني عليها تأويلاتنا المتعدّدة ، وهذا بحقّ ما أشار إليه الامام عبد القاهر الجرجاني في نظريّة النّظم حين أقرّ : " **بأنّه لا قيمة للّفظ ولا مزيّة له إلّا بعد النّظر إليه داخل السّياق وكذا التّركيب الذي وضع فيه، وضمن السّياق الذي اختير له** " (بودرع، 2016، ص: 17).

خاتمة:

في خاتمة مطاف هذه الورقة البحثيّة المختصرة نقول : لا يمكن التّسليم بالإحاطة الشّاملة بكلّ الحيثيّات والمسائل ذات الصّلة بهذه القضيّة ، فالموضوع متشعّب المباحث ، ويأخذ النّفس الطّويل ، والحبر الغزير ، وحسبنا أننّا أثرنا بعض النّقاط التي تنير الموضوع ، وتفتح حوله آفاق البحث الموسّع ، فقد تمّ الكشف عن الكلمة القرآنيّة من حيث اتّساعُ دلالاتها داخل التّركيب أو التّأليف ، وتمّ الوقوف على أهميّة اللّغة وأثرها العميق في دفع هذه الدّراسات إلى المستوى الذي وصلتنا به ، والصّورة النّاصعة التي نُقلت بها إلينا ، فمن غير اللّغة لا يمكن الحديث عن شيئ اسمه التّفسير ، إذ وجب التّعريج على لغة العرب لفهم الدّلالات المتنوّعة ، والمعاني المختلفة المتعلّقة بالقرآن الكريم، وتلكم هي الفكرة الرّئيسة التي أردنا الوقوف عندها مليّا ، ومعرفة أبعادها عند المفسّرين واللّغويين والنّحاة ، حيث من خلالهم أدركنا ماهيّة اتّساع دلالات الكلمات في الخطاب القرآنيّ ، كما أدركنا من خلال هذه السعة كثرة التنوّع والاختلاف بين طبقات المفسّرين واللّغويّين .

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

إحالات الدّراسة

1 ـ ابن يعيش، (2007). شرح المفصل. (المجلد1). لبنان . دار الكتب العلمية،

2 ـ ، علي بن محمد الآمدي (2003).، الإحكام في أصول الأحكام (الاصدار2) ،بيروت . المكتب الاسلامي .

3 ـ أبو حيّان التّوحيدي (2008).، البحر المحيط . (المجلد1) .لبنان. دار الكتب العلمية .

4 ـ جلال الدّين السّيوطي(2006) . الاتقان في علوم القرآن (المجلد3). دمشق . دار ابن كثير.

5 ـ ابن جرير الطّبري(2000). جامع البيان في تأويل آي القرآن (الاصدار 1) . لبنان . مؤسسة الرّسالة .

6 ـ ، عبد الرحمان بن خلدون المغربي(2001). تاريخ ابن خلدون " المقدمة " . (المجلد1) . بيروت. دار الفكر.

7 ـ أبوإسحاق الشّاطبيّ(1997) . الموافقات.(المجلد2). السعودية . دار ابن عفّان للنشر والتوزيع، الخُبَر .

8 ـ ، محمد علي زكي صبّاغ (2005) . الشّعر في الجامع لأحكام القرآن .(الاصدار 1) . لبنان. دار المكتبة العصرية، صيدا.

9 ـ أبو القاسم الرّاغب الأصفهاني (2009). ، المفردات في غريب القرآن . (المجلد1). مركز الدّراسات والبحوث . بمكتبة : نزار مصطفى الباز.

10 ـ أبو حيان الأندلسيّ(1993). البحر المحيط. (المجلد1). لبنان . دار الكتب العلمية.

11 ـ أحمد بن تيميّة، (1973). مقدّمة في أصول التّفسير. (الأصدار 2) مكتبة دار المناهج.

12 ـ أحمد أبو الفرج(1966). المعاجم اللّغويّة في ضوء دراسات علم اللغة الحديث. (الاصدار1) .لبنان. دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

13 ـ سمّى الأستاذ : محمود محمد شاكر ـ عليه رحمة الله ـ هذه القدرة عند الإنسان "بالقدرة على اجتياز محنة البيان " أي محنة اللّغة التي لاتكادتستقرّحدود ألفاظها ولا حدود جملها،أباطيل وأسمار . محمود محمد شاكر(1972). (الاصدار 2) . القاهرة . مطبعة المدني.

14 ـ أبي عبيدة معمر بن المثنّى(2017). مجاز القرآن. (المجلد1). تح: القاهرة . مكتبة الخانجي.

15 ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطّبري (2000) .، جامع البيان في تأويل القرآن. (الاصدار 1) . لبنان. مؤسسة الرسالة .

16 ـ أبوإسحاق الشّاطبيّ(1997) . الموافقات.(المجلد2). السعودية . دار ابن عفّان للنشر والتوزيع، الخُبَر .

17 ـ محمد الفرجيّ(2018) .أصول البيان في فهم الخطاب القرآنيّ وتأويله (الاصدار 1). الرباط . دار الأمان للنشر والتوزيع . المغرب.

18 ـ عبد الرحمان بودرع(2016) . مجلة : فقه اللّسان. (الإصدار 1).الرباط. دار الأمان للنشر والتوزيع.

19ـ أبي حيان التوحيدي الأندلسيّ (1993). البحر المحيط. (الاصدار 1) بيروت، لبنان. دار الكتب العلميّة .

20 ـ جلال الدّين السّيوطي(2006) . الاتقان في علوم القرآن (المجلد3). دمشق . دار ابن كثير.

21ـ عبد الحليم بن تيميّة الحراني أبو العباس (2006).إقتضاء الصّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم.(المجلد1). الرياض. مكتبة الرشد،

22 ـ المحصول في علم أصول الفقه ، فخر الدّين بن عمرالرّازي (1992). المحصول في علم أصول الفقه. (المجلد1). بيروت. مؤسسة الرسالة.

23 ـ عبد الله بن سرحان القرني (2016). أصول البيان في فهم الخطاب القرآنيّ وتأويله " الرباط. . إصدار : الرابطة المحمدية للعلماء.

24 ـ ابن قيم الجوزية (2013).، بدائع الفرائد . جدة، السعودية .مطبوعات مجمع الفقه الاسلاميّ.

25ـ أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشريّ.(2009). الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التّأويل. (الاصدار 3) . (المجلد4) .بيروت. دار المعرفة .

26 ـ فاضل صالح السّامرّائي(2009). الجملة العربية والمعنى. (الاصدار 1). لبنان . دار ابن حزم .

27 ـ ابن فارس .(2007). مقاييس اللّغة . (الاصدار 2) . دمشق. دار الفكر. ابن فارس .

28 ـ ابن قتيبة. (2008) . تفسير غريب القرآن . لبنان. دار الكتب العلمية.

29ـ بلقاسم بلعرج(2007). ظاهرة التّوسّع في المعنى في اللّغة العربيّة ـ دراسة لنماذج قرآنيّة ـ مجلة التراث العربي ، (العدد: 105) . دمشق. اتحاد الكتاب العرب .

30 ـ أبو القاسم الزّجّاجيّ. (1979). الإيضاح في علل النّحو. (الاصدار 3) . لبنان . دار الكتب العلمية .

31 ـ جلال الدّين السّيوطي(2006) . الاتقان في علوم القرآن (المجلد1). دمشق . دار ابن كثير .

32 ـ عبد الرحمان بودرع(2016) . مجلة : فقه اللّسان. (الإصدار 1).الرباط. دار الأمان للنشر والتوزيع.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)